إنجيل يوحنا: رحلة الإيمان

« أنا لستُ أجد فيه علّةً واحدةً »
(١٨: ١-١٩: ١٦)

تأليف: بروس مكلارتي

لكل ترنيمة اجوائها الخاصة بها. بعض الانغام ترسم على الوجه الابتسامة، وتجلب غيرها الدمع إلى العين. تذكرك بعض الأغاني بأفضل أيام حياتك، وتأتي الأخرى بحزن يحرق القلب. هذا ما نعرفه ونتوقعه من الاغاني، وهذا ما يجب ان نتوقعه أيضاً من نصوص الكتاب المقدس. توجد لنصوص الكتاب المقدس اجوائه الخاصة. نص درسنا هذا هو واحد من اكثر النصوص اثارة للحزن والألم في الأسفار المقدسة.

لقد قرأنا في الأصحاحات السبعة عشر الماضية عن حياة يسوع وخدمته. أخبرنا يوحنا بما قال يسوع وما عمل وقد كتب هذا الإنجيل لكي ينتج الإيمان في قلوب القُرَّاء. في بداية الأصحاح ١٨ كان يسوع يتحرك بطريقة حاسمة نحو الصليب الذي كان الهدف والقصد من حياته. يخبرنا هذا الجزء الصعب والحساس عن ثلاث محن تمت في الساعات التي سبقت صلب يسوع، وهذه هي: محنة يسوع، ومحنة بطرس، ومحنة بيلاطس. هذه المحن مجدولة مع بعضها البعض كخيوط الحبل، وتحتوي معاً على رسالة الله عن ابنه وضرورة الإيمان به.

محنة يسوع

بعد ما تناول يسوع العشاء وقضى الليل في الصلاة مع تلاميذه، ذهب معهم إلى خارج المدينة عبر وادي قدرون (١٨: ١)، ودخل بستان كان هو وتلاميذه قد اجتمعوا فيه مرات كثيرة للصلاة. من الواضح ان يسوع نسق طريقة القبض عليه. ظن أعداءوه بانهم كانوا سيقبضون عليه دون علمه وذلك بملاحقته في الليل، في الوقت الذي لا يكون هناك جمع حوله ليدافع عنه. ولكن بالحقيقة كان يسوع هو الذي رتب ليهوذا والجنود ان يجدوه بهذه السهولة.

كان الفريق الذي أرسله رؤساء الكهنة والفريسيون للقبض على يسوع هو مجموعة من الجنود. عندما وصلوا إلى البستان كانوا يحملون المشاعل والمصابيح والسلاح. فسألهم يسوع: « من تطلبون؟ » (١٨: ٤)، أجابوه: « يسوع الناصري » (١٨: ٥). وعندما قال « أنا هو »، تراجعوا وسقطوا على الأرض. وسألهم يسوع مرة أخرى من كانوا يطلبون، فأجابوه أيضاً: « يسوع الناصري » (١٨: ٧). أخبرهم يسوع مرة أخرى بانه الذي كان يبحثون عنه. وأخيراً قبضوا عليه وأوثقوه واقتادوه إلى أورشليم لمحاكمته. لم يكن سلوكه كمن يتجنب القبض عليه؛ بل كان واثقاً وعالماً بأهمية وقوع الأحداث التي جرت في تلك الليلة.

أجريت أول محاكمة ليسوع في بيت حنان حما قيافا رئيس الكهنة وكان قد شغل سابقاً منصب رئيس الكهنة. بما انهم أتوا بيسوع أولاً إلى بيته فهذا قد يعني انه رغم ان قيافا كان يملك اللقب إلا ان حنان لا زال يملك السلطان. تم استجواب يسوع في بيت حنان عن تعليمه واتباعه الذين جذبهم وراءه. وعندما قال لهم انه لم يفعل شيئاً في الخفاء وبان تعاليمه كانت علانية حتى يسمعها الجميع ويقيموها، لطمه أحد الخدام لأنه اعتقد ان يسوع « لم يحترم » حنان. وبعد ذلك أرسل حنان يسوع

ويديه موثوقتين إلى قيافا.

ومن بيت قيافا اقتادوا يسوع إلى دار الوالي الروماني الذي كان يسمى بـ«دار الولاية» (١٨: ٢٨). كان اليهود يعتبرون دار الولاية بيت الأمم لا يمكن التفكير بان يدخله أي يهودي وخاصة في وقت عيد الفصح.[١] كان على بيلاطس ان يخرج من داره لكي يتحدث مع قادة اليهود الذين كانوا ينادون بالموت ليسوع. في الساعات القليلة المقبلة يدخل بيلاطس ويخرج مراراً وتكراراً مجتهداً لفهم ما كان يجري من الأحداث ويبحث من غير جدوى عن طريقة ليطلق سراح يسوع.

قال بيلاطس لليهود في أول الأمر: «خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم» (١٨: ٣١). ولكنهم أرادوا قتل يسوع وكان ذلك شيء يحق للوالي الروماني وحده أن يجيزه. استدعى بيلاطس يسوع إلى الداخل وبدأ يستجوبه. فسأله: «أنت ملك اليهود؟». عندما لم يعطه يسوع إجابة مباشرة قال بيلاطس: «ألعلي أنا يهودي؟» (١٨: ٣٥). فأجاب يسوع:

> مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود. ولكن الآن ليست مملكتي من هذا العالم (١٨: ٣٦).

بعد تبادل الحديث العديم الجدوى هذا مع يسوع خرج بيلاطس أيضاً (١٨: ٣٨) وقال لقادة اليهود بانه لم يجد في يسوع علة واحدة (لم يكن يدرك صدقه في ذلك!).

تمنى بيلاطس بان استجوابه ليسوع كان سيقنع الذين أتوا به إلى هناك للمحاكمة. ولكن لم يقنعهم ذلك. وعندما أعطى طريقة ليفدي بها يسوع رفضها القادة وطلبوا عوضاً عن ذلك اطلاق سراح إنساناً قاتلاً (أنظر لوقا ٢٣: ١٩؛ أعمال ٣: ١٤). وأصروا بان يصلب يسوع. بمحاولاته اليائسة ليرضي متهمو يسوع أمر بيلاطس الجنود بجلده والاستهزاء به. وعند ذلك وضعوا على المخلص إكليلاً من الشوك وألبسوه ثوباً أرجوانياً.

وبينما كان يسوع لابساً ثياب الذل والإكليل، أمر بيلاطس بأن يخرجوه لكي يراه قادة اليهود. إن كان بيلاطس يتمنى بان هذا سيشبع بغضهم ليسوع، فقد أخطأ تماماً. إذ صاحوا مرة أخرى: «اصلبه اصلبه!» (١٩: ٦). قال لهم بيلاطس بان يصلبوه هم انفسهم. أخبروا بيلاطس بان يسوع ادعى بانه ابن الله. وبدلاً من أن تجعل هذه المعلومة بيلاطس ان يصدر حكماً بقتله، جعلته خائفاً. مع ان بيلاطس لم يكن يؤمن بإله اليهود إلا انه لا يريد ان يغضب أي إله بقتل ابنه!

وإذ كان يحاول ان يجد حلاً يتخلص به من مشكلة ما سيفعل بيسوع، أخذه بيلاطس مرة أخرى إلى دار الولاية وبدأ يستجوبه مرة أخرى. عندما رفض يسوع أن يجاوب على أسئلته، قال له بيلاطس (ربما صائحاً): «ألست تعلم أن لي سلطان أن أصلبك وسلطان أن أطلقك؟» (١٩: ١٠). أجاب يسوع وقال: «لم يكن لك عليّ سلطان البتة لو لم تكن قد أعطيت من فوق. لذلك الذي أسلمني إليك له خطية أعظم» (١٩: ١١). وبهذا حاول بيلاطس بأقصى الجهد ان يجد طريقة ليطلق بها يسوع.

عندما رفض قادة اليهود محاولة بيلاطس الأخيرة، لم يستطع بيلاطس ان يحتمل بعد. فأخذ يسوع إلى مكان اسمه «جباثا» حيث كان يتم النطق بالحكم رسمياً. وقال لليهود: «هوذا ملككم!» (١٩: ١٤) وأسلمه ليصلب. هكذا انتهت محاكمة يسوع.

بلغة العدالة كانت أحداث تلك الليلة مخزية ومسببة للأسى. تثبت المحاكمة كما قدمها يوحنا بان يسوع كان بريئاً! لقد تَسَيّد السلطان والسياسة على الحق والمنطق. قد تم إدانة إنساناً بريئاً بالموت فقط لأنه اصبح يهدد «مجموعة معينة من الناس». ولكن يرى المسيحيون أحداث تلك الليلة والصباح التالي بطريقة مختلفة. لا نراها أساساً كمأساة فزيعة، بل كعطية سخية. لقد شدد يوحنا على ان حياة

[١] أنظر أعمال الرسل ١٠: ٢٨؛ ١١: ٣ و١٢.

يسوع لم تُخْطَف منه، بل هو الذي بذلها.

محنة بطرس

كانت المحنة الثانية في تلك الليلة هي محنة بطرس الشخصية الروحية. نلتقي بقصته عندما كان يسوع يغسل أرجل التلاميذ. استجاب بطرس باندفاع حسب طبيعته، حاول أولاً منع يسوع من غسل قدميه ومن ثم طلب من يسوع أن يغسل جسمه كله (١٣: ٦-٩). وفيما بعد عندما قال يسوع للتلاميذ بانه ذاهب حيث لا يقدرون ان يأتوا، أصر بطرس بان لا شيء يمنعه من اتباع سيده، وسأله: «يا سيد لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن؟ إني أضع نفسي عنك» (١٣: ٣٧). فتنبأ يسوع وقال: «أتضع نفسك عني؟ الحق الحق أقول لك لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات» (١٣: ٣٨). لم يستطع بطرس تصور ما كان سيقوله ويفعله في الساعات القليلة التي تلت.

وفي وقت لاحق من الليلة استعد بطرس ليقاتل الجنود الذين جاءوا للقبض على يسوع (١٨: ١٠). فأخذ سيفاً وضرب عبد رئيس الكهنة اسمه مَلْخُس. ربما أراد بطرس قطع رأس هذا العبد ولكنه استطاع قطع أُذنه اليمنى فقط. توقف القتال حال ابتداءه؛ إذ قال يسوع لبطرس ان يعد السيف إلى غمده. إلى هنا يبدو بطرس بانه الجريء والأشجع من بين التلاميذ.

اشتدت محنة بطرس الشخصية عندما أُخذ يسوع إلى دار رئيس الكهنة. قال يوحنا بان بطرس كان بالحقيقة في داخل الدار عند وقوع الأحداث التالية (١٨: ١٥ و١٦). سألت الخادمة البوابة بطرس عند دخوله: «ألست أنت أيضاً من تلاميذ هذا الإنسان؟» (١٨: ١٧). أجاب بطرس: «لستُ أنا». الرجل الذي كان مستعداً لقتال فرقة الجنود التي أُرسلت للقبض على يسوع قبل وقت قصير خوفته خادمة واحدة!

كانت تلك الليلة باردة وقد أوقد الخدام والجنود ناراً لكي يستدفئون حولها. وكان بطرس واقفاً مع هؤلاء حول النار يستدفيء عندما قال أحدهم: «ألست أنت أيضاً من تلاميذه؟» (١٨: ٢٥). أنكر بطرس للمرة الثانية أية علاقة بينه وبين يسوع قائلاً: «لستُ أنا». وبينما كان بطرس يهدىء نفسه من مرارة الانكار الثاني، قال عبد آخر وكان هو شاهد عيان للأحداث التي جرت في البستان ونسيب الذي قطع بطرس أُذنه بالسيف: «أما رأيتك أنا معه في البستان؟» (١٨: ٢٦) «فأنكر بطرس أيضاً. وللوقت صاح الديك» (١٨: ٢٧). أُمْتُحِن يسوع فَوُجِد بريئاً، وأما بطرس عندما أُمْتُحِنَ وُجِدَ جباناً.

يجب قراءة الإنجيل بثلاثة مستويات مختلفة دائماً. يأتي في المستوى الأول السؤال عما حدث في حياة يسوع، وفي المستوى الثاني ما قصده كاتب الإنجيل ان تعلمه الكنيسة المبكرة من كتابة القصة. وفي المرحلة الثالثة يجب ان نسأل ما يعنيه هذا الإنجيل في حياتنا اليوم.

قراءة «المستوى الأول» في محنة بطرس تخبرنا بان بطرس أنكر يسوع ثلاث مرات. وقراءة «المستوى الثاني» تأتي بنا إلى الرسالة التي تم تقديمها عدة مرات.[٢] حتى الآن في هذا الإنجيل، وهي انه لا بد ان يكون المسيحيون مستعدين لأعلان إيمانهم جهراً، حتى وإن أدى ذلك إلى اضطهاد قاسي. وقراءة «المستوى الثالث» تدعونا لنكون جريئين في إيماننا ونعترف بتعهدنا ليسوع حتى وإن كان العالم يستهزيء بنا أو يؤذنا.

سافر صديقاً عزيزاً لي إلى إفريقيا في سنة ١٩٩٥م ليعمل كإرسالي هناك. يحب الرب وقد تعهد بان يشارك الإنجيل مع الآخرين. وبفضل انه إرسالي أجنبي كان بارزاً كمسيحي متحمس. في أحد تقاريره المبكرة عن العمل كتب عن رحلته الجوية إلى إفريقيا:

> ... كان رجلاً يجلس في الكرسي المجاور في الطائرة عندما كنت في طريقي إلى يوغندا في الربيع الماضي، قال لي شيئاً

---

[٢] قصة نيقوديموس في (الأصحاح الثالث من إنجيل يوحنا) وقصة الإنسان المولود أعمى في (الأصحاح التاسع من إنجيل يوحنا) هما مثالين أولين لهذه الفكرة الرئيسة.

بقى عالقاً بذهني. قال لي الرجل وهو أروبي بعد ما شرحت له باننا كنا ذاهبين إلى يوغدا لنبشر بيسوع المسيح: «ألا يوجد آلهة في إفريقيا؟» لم أدري كيف أجيبه، ففضلت السكوت.

أعتقد بان ما أزعج صديقي في ذلك هو انه شعر كبطرس في الليلة التي قبض فيها على يسوع. وعرفت انا ايضاً كيفية الشعور بالتخوف واليثار بالسكوت. يحكي إنجيل يوحنا عن محنة بطرس كإنذاراً لنا عن قوات الشر المتآمرة في عالمنا والتي تجعلنا نفعل ما لا يمكن التفكير به، أي انكار ربنا!

محنة بيلاطس

يبدو للمشاهد العادي في تلك الليلة بأن يسوع هو الذي كان يمر بمحنة وحده. ولكن يظهر إنجيل يوحنا ان بطرس وبيلاطس كانا كلاهما في محنة أيضاً. كان تعهد بطرس يمر بالتجربة، وكان بيلاطس يواجه أعظم سؤال في كل زمان: «ماذا تفعل بيسوع؟» خلال ساعات قليلة كان على بيلاطس ان يواجه كل الأسئلة التي تعامل بها تلاميذ يسوع خلال فترة الثلاث سنوات التي قضوها مع يسوع.

عندما أتوا بيسوع أمام بيلاطس، كان أول ما قاله الوالي هو: «خذوه أنتم وأحكموا عليه حسب ناموسكم» (١٨: ٣١). لم يهتم بيلاطس باليهود أو بمجادلتهم المستمرة. ولكن ذلك لم ينهي المشكلة التي تشمل على يسوع، فقضى بيلاطس الساعات القليلة التي تلت محاولاً ايجاد حلاً مناسباً «لمجادلة اليهود هذه». وفي أثناء ذلك كان عليه ان يتعامل مع ما كان سيفعله بيسوع.

كانت استجابة بيلاطس الأولى كما قد رأيناها الآن (١٨: ٣١) بلا مبالاة. لم يهتم بيسوع بطريقة ما أو بأخرى. كان يفضل ان يختفي يسوع عن الساحة. الامبالاة هي موقف معظم الناس من يسوع. ولكن بيلاطس لم يستطع تجنب القرار عن يسوع، ولا نستطيع نحن أيضاً ان نتجنب اتخاذ القرار المناسب بخصوص يسوع اليوم!

كانت استجابة بيلاطس الثانية ليسوع هي بإزدراء. خلال الاستجواب الأول الذي أجراه الوالي مع يسوع قال: «ألعلي أنا يهودي؟ لقد أسلمك لي أمتك ورؤساء الكهنة. ماذا فعلت؟» (١٨: ٣٥). اعتبر بيلاطس يسوع بانه يهودي آخر مثير للشغب. هكذا يعتبر كثيرون يسوع اليوم. كل ما يفعلون هو الازدراء بيسوع وتعاليمه.

كانت استجابة بيلاطس التالية ليسوع هي الاجتناب. بعد ما استجوبه بيلاطس للمرة الأولى حاول بخطة بارعة ان يجد طريقة يتجنب بها صنع قرار عن يسوع الناصري. وعندما اقترح حلاً بان يطلق يسوع بسبب عيد الفصح (١٨: ٣٨ و٣٩)، كان يحاول بذلك تجنب صنع قرار حازم عن يسوع. هل رأيت مثل رد الفعل هذا بما يختص بيسوع اليوم؟ ينشغل الناس بالعمل والاستجمام والموسيقى أو الحفلات ليتجنبوا فعل شيئاً بخصوص يسوع!

كان الخوف هو استجابة بيلاطس الرابعة ليسوع. عندما سمع بيلاطس بان يسوع ادعى بانه ابن الله، خاف (١٩: ٨). مع ان بيلاطس كان يملك قوة الموت والحياة على جميع اليهود، إلا انه خاف من الجليلي المقيد الذي كان واقفاً أمامه! أنا أعرف بعض الإرساليين دخلوا في دول وضعت على حدودها لافتات مكتوب عليها: «تحذير! ممنوع الأسلحة والكُتب المقدسة!» حتى الحكومات القوية ترتعد أمام قوة إنجيل المسيح اليوم، وتخاف من يسوع بقدر ما تخاف أو أكثر مما تخاف من أسلحة الحرب.

وأخيراً استجاب بيلاطس إلى ضغوط قادة اليهود ليحكم على يسوع. عرف بيلاطس ان يسوع كان بريئاً، ولكن لم تكن له الشجاعة ليثبت في وجه الضغوط ويعمل ما هو صحيح. عوضاً عن ذلك اختار الطريق السهل للتخلص وسمح بصلب يسوع. بهذه الطريقة تتشابه محنة بطرس وبيلاطس.

قصة بيلاطس توضح بانه لا يمكن للشخص ان يتجنب اتخاذ قرار ما عن يسوع. قد نحاول تجاهله، ولكن لا يمكن ذلك. سنكون مجبورين في لحظة ما ان نقول له: «نعم» أو «لا». جميعنا نواجه الضغوط لأن نكون ضده أو على الأقل

نبعد انفسنا عنه، ومع ذلك ما زال علينا ان نقرر ماذا نفعل بيسوع.

الخلاصة

المحن الثلاث التي رأيناها تصف الإنجيل واستجابتنا له. وقف يسوع أمام محاكمة ولكنه وُجد بريئاً. أنا وأنت أنفسنا في تجربة مثل بطرس وبيلاطس. السؤال الموجه لنا هو «هل سندافع عن الذي مات لأجلنا؟» عندما يُضغط علينا هل سنكون أقوياء بما فيه الكفاية لنقول: «أنا تلميذ يسوع الناصري؟» لا يمكننا تجنب صنع القرار عنه. ماذا تفعل بيسوع؟

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧